

تقديم

ولد جان ماري جويو في لافال في الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٨٥٤ . وكانت أمه — التي ألّفت كتباً مشهورة كثيرة في التربية تحت هذا الاسم المستعار : ج . برينو — الموجه الأول لدراسته . ثم تولى الإشراف على دراسة الفيلسوف الفرنسي الكبير ألفريد فوييه الذي يمت إليه بقراءة نسب ، والذي أصبح بعد ذلك زوجاً لأمه . وقد ظهر نبوغ جويو في سن مبكرة جداً . فاشغف بالشعر والفلسفة شغفاً عظيماً . وكان يميل إلى كورني وهوجو وموسيه وأفلاطون وكنت وإبكتيت . وتعمق الفلسفة اليونانية ولمايزل في سن المراهقة . ولم يجاوز السابعة عشرة من عمره ، حتى كان قد نال شهادة الليسانس ، وترجم كتاب إبكتيت . وكان كثير الشغف بالفلسفة الرواقية ، حتى لقد أخذ بها في حياته العملية على شيء من التلطيف .

ولما بلغ التاسعة عشرة أجرت أكاديمية العلوم الاخلاقية مسابقتها المشهورة ، فتقدم برسالته في ، الاخلاق النفعية منذ إبكتيت حتى المدرسة الانجليزية المعاصرة . فنالت الرسالة أعظم التقدير ، وتوجتها الأكاديمية . وفي السنة التالية ، أي في عام ١٨٧٤ ، كلف بتدريس الفلسفة في ليسيه كوندورسيه .

وفي هذه هذه الفترة — وقد أرهاقه العمل على ما يظهر — شعر بالأعراض الأولى لذلك الضعف التدريجي ، الذي إن استطاع أن ينقش قواه الجسمية شيئاً بعد شيء ، فإنه لم ينل من قواه الروحية ، ولا حدث من خصبه الفكري . وغادر باريس إلى الجنوب ، نشدانياً للنجو للملأثم لصحته . فتوجه أول ما توجه إلى بونايومن ثم إلى بيارتس ، فنيس ، فمانتون . وقد ردت إليه هذه الرحلة بعض القوة والامل ، وأتاح له أن يشرع بكتابة طائفة من المؤلفات الكبيرة . وكانت هذه الفترة حافلة

بالعمل الدائب والتقدم المستمر . وفيها وصل ، على ضعف صحته ، إلى تمام النضج الذى لا يقاس بالسن بل بقوة العبقرية . وفى هذه الأثناء طبع كتابه « أخلاق أبيقوروس » ، وطبع كذلك كتابه « الأخلاق الانجليزية المعاصرة » . وما هى إلا مدة وجيزة حتى أصدر ديوانه « أشعار فيلسوف » ، وكتاب « مسائل فلسفة الجمال المعاصرة » . وبعد ذلك بدأت أعماله الفلسفية الصرفة . فظهر كتابه « الأخلاق » الذى تقدمه الآن بالعربية ، ثم « زوال الدين فى المستقبل » ، الذى أثار لغطاً كبيراً ومناقشات حادة . وبعد ذلك بقليل كتب « الفن من وجهة النظر الاجتماعية » ، وأخيراً كتب « التربية الوراثة » . ولم يُطبع هذان الكتابان إلا بعد موته ، وكذلك كتابه « نشأة فكرة الزمان » .

وكانت هذه الآثار على وفرتها وخصوبتها تبدو له شيئاً يسيراً بالنسبة إلى ما كان ينوى عمله .

والفكرة المسيطرة التى يشرحها جويو فى نتائجه الرئيسية هى أن الحياة مبدأ مشترك للفن والأخلاق والدين . وفى رأيه أن الحياة العنيفة — وهذه هى الفكرة المولدة لمذهبه كله — تنطوى على رحابة وخصب وكرم . وأن الحياة السليمة تجمع بصورة طبيعية بين وجهة النظر الفردية ووجهة النظر الاجتماعية اللتين نشأ من اختلافهما . الظاهر ما وقعت فيه النظريات النفعية فى الفن والأخلاق والدين ، من خطأ وضلال . وإن المهمة العظمى التى تقع على القرن التاسع عشر هى أن يبرز الجانب الاجتماعى فى الفرد الإنسانى ، وفى الكائن الحى على وجه العموم ، هذا الجانب الذى جهله المذهب المادى الأنانى فى القرن الثامن عشر . فإذا أمكن أن يبرز هذا الجانب الاجتماعى من الحياة الفردية ، رأينا الفن والأخلاق يقومان بعد ذلك على أساس ويطيد . لقد انتهى القرن الثامن عشر بالنظريات الأنانية التى قال بها هلقتيوس ، وفولنى ، وبانثام ، نتيجةً لتلك المادية الساذجة التى أخذ بها لامترى بل وديدرو . حتى إذا جاء القرن التاسع عشر ، واتسع العلم ، ورهفت المادة ، رأينا « جهاز الساعة » الذى قال به لامترى يصبح عاجزاً كل العجز عن تفسير الحياة .

وإذا بالفرد الذي كان يعد معزولاً منجسباً في جهازه ، يعدّ اليوم متأثراً بالغير ، متضامناً مع سائر النفوس ، قابلاً لأن تحدده مشاعر غير شخصية ؛ وإذا بالجملة العصبية تُفهم اليوم على أنها مقر ظاهرات يفوق مبدؤها جسم الفرد . . . وإذا بالتضامن يسيطر على الفردية . . . إن حبس الشعور النفسى أو الأخلاقى أو الدينى لا يقل صعوبة عن حبس الحرارة أو الكهرباء .. فظاهرات الجسم والروح معدية جميعاً على حد سواء .. وهاهى ذى معرفتنا بظاهرات التعاطف العصبى أو العقلى آخذة بالازدياد يوماً بعد يوم . . وهاهى ظاهرات الايماء وتأثير التنويم تُدرس اليوم دراسة علمية . ولعل القرن المقبل أن يطلع علينا باكتشافات فى عالم الروح لا تقل عن اكتشافات نيوتن ولا پلاس فى عالم المادة ، فيبين لنا كيف تتجاذب العواطف ، وتتعاون العقول ، وتتداخل النفوس ،^(١) . ولعله أن يبين أن العواطف الاجتماعية ما هى إلا ظاهرات معقدة ناتجة فى جلها عن تجاذب وتدافع بين الأجهزة العصبية ، وأنها لذلك شبيهة بالظاهرات الفلسكية . ولعل العلم الاجتماعى ، الذى يدخل فيه قسم كبير من الأخلاق والفن والدين ، أن يصبح دسراً بمعقداً من الفلك ، ولعله حينذاك أن يلتقى ضوءاً جديداً على المتيازىاء نفسها . ذلكم هو الأمل العظيم الذى يسيطر على آثار جويو . وترى إذن أن الاجتماع لا ينفصل عن الأخلاق ، عن الفن ، عن الدين . . فهذه الميادين جميعاً تنصب ، عند جويو ، فى مفهوم الحياة .

الفن : وقد كانت النظرية الشائعة فى الفن ، أيام عاج جويو هذه المسألة ، ترى فى الفن لعباً تقوم به ملكاتنا الفكرية ، وأنه لذلك يتناول الصورة والخيال ، لا واقع الحياة (كنت ، شيلر ، وسپنسر بعد ذلك) . فبين جويو أننا ، إذ نربط الفن باللعب ، ونعزله عن الحقيقة والمنفعة والخير ، ونشجع بذلك على نوع من الغواية ومحبة الصورة دون المادة ، والشكل دون الجوهر ، نجعل الجانب الجدى الحيوى من الفن والأدب . فأنما نحن ننشد فى الفن حياة أغنى من الحياة العادية وأعنف . فما الفن إلا حياة واسعة ، وإن اضطررنا ، مع الأسف ، إلى اللجوء إلى الصورة واللعب لبلوغ هذا الاتساع . وليس الابتعاد عن الواقع شرطاً للجمال . بل هو ، على العكس ، تضيق

لهذا الجمال ونعديد . إتنا لتتق . أثناء التأمل الفني . أن تغلب إلى الشيء الذي
تأمله . وذلك هو السبب في غلب الشاعر . لأنه لا يستطيع أن يتعد بالحيات الواقعية .
(أنظر قصيدته للم شاعر) . ولهذا كفن الجمال الطيبي . في قطر جويو ، أسى من
الجمال الفني . ومن ثم كانت كلمة الحواس تشارك في الاستمتاع بالجمال . فإن قدحاً
من الحليب على مقربة من كوخ الراعي يمكن أن تحدث في النفس الشاعرة ما تحده
فيها مشفوية ريفية . إن كل أجزاء كياتا تشارك في للثة الفنية : الإدراك ،
والذكرى والخيال ...

والجمال هو الحياة التي تفتح صدرها للغير ، فتفتح لها صدرنا .. وما الجمال
فهي إلا التعبير العاطفي العنيف عن هذه الحياة .

ولكن إذن اجتماعي لا في غاية وتأنجه الحب ، بل في جوهره وروحه .. إنه
إشباع من الحب ، يلهم الحب ، ويستلمه ... الفن العظيم هو أن يحيا المرء حياة
سائر الكائنات ، ثم يعبر عن هذه الحياة بعناصر مستمدة من الواقع . وأن نحيا
حياة غيرك ، أليس هذا هو الحب ؟ فليس الفنان الحقيقي إذن ذلك يتأمل . بل ذلك
الذي يحب ، ثم يعبر عن حبه للآخرين . إن عاطفة الحب هي مبدأ للشعور الفني .
وكما تقدم الزمن رأينا كل لثة تكنتى ثوب الجمال .. وسيأتي يوم يزول فيه
التفريق بين اللذيذ والجميل . فإ هذا التفريق اليوم إلا نتيجة لقوة العنصر الحيواني
الذي ما زال يأسر الإنسان . وسيزول كذلك التفريق بين الجانب النفسي والجانب
الأخلاقي في تقدير القيم الطبيعية للحياة ... وسنقتنع أخيراً أن الفنان لا يستطيع
أن يعبر عن شيء غير حياته ، وأن قيمة آثاره مرهونة إذن بقيمة هذه الحياة —
وما هي ذي آثار جويو مثال على ذلك . فإ الفكرة الرئيسية التي تسيطر على كل
نشاطه الأدبي ، وآرائه في الفن والأخلاق والدين ، إلا تعبير عن تلك الحياة
الرجبة السمحة التي يحركها إيروس العظيم .

ولجويو ديوان شعري ، كما رأيت ، بعنوان « أشعار فيلسوف » ، قال في مقدمته
له : « لن يحتفظ الشعر بمكانته تجاه العلم ، ما لم يبحث عن الحقيقة ، كالمعلم نفسه ،
وإن في صورة أخرى ، وطرق خاصة . إن الشعر الحق هو الذي يستخرج العاطفة

من الفكرة ، والصورة نفسها من الجوهر ، كما تُستخرج الحياة من البذرة المنبثة . ليس الشعر ما ستر فقر الفكر والشعور وراء القوافي والأصوات الجوفاء . ليس الشعر هذه الألاعيب اللفظية التي نراها لدى شعراء الانحطاط . ليس الشعر تلك الجمعجات الباردة ... فما كان لضخامة صوت الخطيب السخيف أن توهم أن وراءها فكراً وشعوراً .. وإنما الشعر كلام لين ، يشف ، كالبثور ، عن الشعور الدقيق ، والفكر العميق

وقد نظم شاعرنا في الفكر ، والحب ، والفن ، والطبيعة ، والانسانية . إلا أن القصائد التي ألهمه إياها مصير الإنسان أقوى هذه الأبواب جميعاً وأنت إذ تقرأ قصائده تحس أنك أمام نعمة شخصية أبدأ ، وغير شخصية أبدأ . وهنا تكن أصالة شاعرنا الفيلسوف . فلا تمالك حين تسمعه أن تقول : إنه هو . ثم لا تلبث أن تضيف : إنه أنا مع ذلك ، إنه نحن جميعاً ...

الرؤى : يؤسس جويو الأخلاق على مفهوم الحياة ، بأوسع معاني هذه الكلمة ، فيزيل التعارض بين الشعوري واللاشعوري ، كما يزيل التعارض بين الانانية والغيرية . فالحياة إنما هي حاجة إلى النماء والبقاء والإنجاب والاتساع . والغايات لا يوجد لها الشعور ، وإنما تكون أولاً في اللاشعور ، ثم تظهر إلى الخارج ... وعلم الأخلاق هو علم الوسائل التي بها نستطيع أن نبلغ الغاية التي وضعتها الطبيعة نفسها ، أعني نماء الحياة واتساعها . وليس الواجب إلا فيضاً في الحياة يريد أن ينفق . فهو لا يأتي عن إكراه ، أو ضغط خارجي . إنه التعبير عن قوة طائفة ، تظهر إلى الخارج في حب وغيرة . أما الانانية فهي وهم ، ونحن غيريون برغم أنفنا ، ومصلحتنا متفقة في معظم الأحيان مع مصلحة الآخرين .

تلك هي الفكرة الأساسية التي عرضها في كتابه الأخلاق ، . وقد ظهرت بوادرها فيما سبقه من كتب ، في كتابه أخلاق ابيقوروس ، وكتابته الأخلاق الانجليزية المعاصرة ، . ومن طريف ما يروى بصدد هذا الكتاب الأخير أن سبنسر لم يكن قد نشر حين صدوره كتابه في مبادئ الأخلاق ، . إلا أن جرأة الشباب لدى جويو (وكان يومئذ في التاسعة عشرة من عمره) أوحى إليه

أن يستبق الزمن ، ويحاول تصور الاخلاق التي عسى أن يقول بها سبنسر استناداً إلى ما سبق أن ظهر له من مؤلفات . وذلك رغبةً من جويو في إتمام عرضه لآراء المدرسة الإنجليزية . فلما اطلع سبنسر على الكتاب ، أرسل إليه يقول : « أستطيع أن أقول بدون مجاملة (وليست المجاملة من طبعي) أنك صورت رأيي خيراً مما كان في وسمى أن أصوره . وما كان في وسعي أن أتخيل أن من الممكن ، بالاعتماد على الفقرات الاخلاقية التي تحتويها مؤلفاتي المنشورة ، انشاء النظرية العامة على هذا الوجه الاكمل ... »

الترية : وقد كان جويو كثير الاهتمام بمسائل الترية ، حتى أنه ألف كتاباً في القراءة أصبحت كلاسيكية في المدارس . فلما أصبح أباً زاد اهتمامه بمسائل الترية ، وألف كتابه « الترية والوراثة » الذي لم يطبع إلا بعد موته . وقد كان الناس في القرن الأخير يبالغون في قيمة الترية ، حتى تساءل بعضهم (كهلفتيوس مثلاً) : أليس من الممكن أن يُعلّم النبوغ كما تعلم الفضيلة . إلا أن الأبحاث الأخيرة في الوراثة قلبت هذا الرأي رأساً على عقب ، حتى اعتقد بعضهم أن الترية عاجزة عن أن تبذل أية صفة من الصفات التي انحدرت إلى الفرد من عرقه ، وورثها عن آبائه ، وأن المرء يولد مجرمًا كما يولد شاعراً ، وأن مصيره الاخلاقي مخزن فيه منذ وجوده في رحم أمه ، ثم يظهر بعد ذلك في حياته لا محالة . وأنت تعلم ما لهذه المسألة من خطر عظيم ، في الاخلاق وفي السياسة . وقد حاول جويو أن يبين نصيب كل من الناحيتين ، الوراثة والترية ، فعرّف الوراثة بأنها عادات منحدرة إلينا من النوع ، وعرّف الترية بأنها عادات يكتسبها الفرد . وتساءل عما إذا كانت قوانين الإيحاء التي تحقق منها علماء النفس وعلماء الفسيولوجيا ، والتي لاتزال نتائجها مجهولة ، عما إذا كانت هذه القوانين لا تدخل عنصراً جديداً في المشكلة ، وتغير حدود السؤال نفسه ، ولعل جويو أول من أشار إلى الشبه العميق بين الإيحاء والغريزة ، وإلى إمكان استخدام الإيحاء في الترية كمصحح للغرائز غير السليمة ومقوّ للغرائز السليمة . فإذا كانت الترية مجموعة من الإيحاءات المنظمة المتوافقة أمكن أن يكون لها تأثير عظيم سواء من الناحية النفسية ومن الناحية الفيزيولوجية .

وقد تابع جويو هذه الفكرة في نتائجها كلها ، فدرس أولا التربية الأخلاقية ، ثم التربية الجسمية ، فالترية العقلية ، وكان كتابه حافلا بالنظرات الجديدة . وكان هذا الكتاب إذن بحثاً في الوسائل التي نستطيع بها أن نصلح الوراثة ، ونوجد وراثته جديدة . ويرى جويو أن على نظام التربية أن يتجه إلى المحافظة على العرق ، والعمل على تقدمه . فبالترية إنما عملت الأديان على صيانة الشعب المختار ، وحماية التراث القومى . فكذلك يجب أن يكون هدف التربية الحديثة .

الربيع : والمسألة الدينية مرتبطة ، عند جويو ، بمسألة الأخلاق ، ومسألة الفن .. فهذه الميادين تنصب جميعاً في مفهوم الحياة .. فلم يكن الدين في أول أمره إلا الأخلاق نفسها والقانون والفلسفة والدين : لقد كانت الأخلاق البدائية دينية ، وكان القانون البدائي دينياً ، ولم تنفصل الفلسفة ولا انفصل العلم عن الدين إلا في عصور متأخرة . وإذا كان للمجتمعات كلها أديان تؤمن بها فماذا كان ذلك إلا لأن الدين ، في الحالة الحاضرة ، منفعة عظيمة ، بل لأنه ضرورة حياتية ، لأنه وسيلة للبقاء والنماء . فان كل مجتمع من المجتمعات يحس إحساساً غامضاً بشروط وجوده وتقدمه ، تقوده في ذلك غريزة لا تخطئ . فيوجد لنفسه حكومات وقوانين وعادات تضمن بقاءه وتعمل على نمائه ، ويوجد لنفسه كذلك اعتقادات وتصورات بصدد حياة الكون ، ومبدأ الأشياء ، ومصير الإنسان ، في صورة تتفق مع مصلحته الاجتماعية ، وتنسجم مع شروط وجوده وتقدمه . واختلاف الأديان إنما يرجع خاصة إلى اختلاف النماذج الاجتماعية التي يتصور الإنسان الكون على مثالها . وتنجلي الصفة الاجتماعية التي للدين ، في أوضح صورة ، في العبادات التي بواسطتها يتصل الإنسان بآلهته . إلا أن العبادة الدينية تزداد مع الزمن رهافة ومثالية ، فتحل العبادة الداخلية محل العبادة الخارجية ، ويحل التصوف محل الأسطورة . ويرى جويو أن الصفات الأساسية لكل دين هي : ١ — تفسير الطبيعة تفسيراً غيبياً ، وهذا التفسير الغيبي موجود في الأديان الراقية نفسها إذ تؤمن بالمعجزات ، ٢ — مجموعة من الاعتقادات يعدها المؤمنون حقائق مطلقة ، ٣ — مجموعة من الطقوس والعبادات يعدونها ذات تأثير خارق للطبيعة . فإذا لم تتوفر هذه العناصر الثلاثة لم يحق لنا أن نتحدث عن الدين .

وهذا الدين صائر إلى الزوال. إلا أن زواله لا يتم في صورة مباشرة ، ولا ياتي من الخارج . فهو ينتج عن زوال شروطه الحياتية الداخلية ، ويتم هذا الزوال بصورة تدريجية مع تقدم الصناعة والعلم والفردية في الأخلاق . ولعل هذا العامل الأخير أقوى العوامل على الإطلاق . فانه يعمل على زوال الدين . وقد يدوم العمل على هذا التحلل مدة طويلة . إلا أن الأفكار لا تنقطع عن القيام بعملها . فهي ماضية في طريقها قدماً . . وإن توقفت في الطريق من حين إلى حين . . كجنود متعبين .

إلا أن (اللادين) لا يعنى (ضد الدين) . فاهو في الواقع إلا درجة عليا من الدين تنهدم فيها العقائد ويبقى من الدين خير ما فيه . وخير ما في الدين هو بعينه ما أوجد الدين — أعنى الرغبة في تجاوز الواقعة العارية أو الوصول إلى ارتباط أعظم . إن الفكر الإنساني أشبه بالسنونو: لم تُسأ جناحاه لطيران يمس الأرض ، بل لا تنفاضة جريئة عالية في الفضاء الحر . وإنما المهم إذن أن ينهض . وهذا شاق ولا ريب . إلا أن رنوه الأبدى إلى المثل الأعلى لا يني يضع تحت جناحيه هواء . ويزداد هذا التطلع إلى المثل الأعلى قوة حين يتخلص من الدين . ولن يحتاج عندئذ إلى لغة محددة للتعبير عن الاسرار الخالدة . . . ستنتطق هذه الاسرار من تلقاء نفسها . . وستكون الفروص الأخيرة متسمة بطابع فردى . . فكل امرئ يخلق إلهه ويخلق انجيله وتوراته . . وسيكون من الممكن أن تعيش هذه الإعتقادات المختلفة جنبا إلى جنب ، كما يمكن أن تعيش النباتات المختلفة في أرض واحدة . . . أما العناصر الأخلاقية في الدين فستظل قوية خالدة . حتى أن خيار الناس أصبحوا في أيامنا هذه يوحدون بين الدين والحب — ليس شعورنا بأزاء الحياة بسيطا ولا ثابتا . إنه معقد غير مستقر . هذه لانهاية من السنين تنقضى في تطور وتقدم ! فماذا خرج من ذلك كله ؟ خرج هذا العالم الذي نرى ، بما فيه من تمزق وتباين . . . وكلما ازداد اتحاد الإنسان بالوجود الكلي ، ازداد عذابه . . ألا إن الفكر عذاب ، لانور فحسب . غير أن هذا الاتحاد بالكل يحمل دائماً طابع السمو . . . ولن تكف القوة الغائضة الطاغية عن خلق الأمل ، والإيمان ، وحب المخاطرة . . .

خاتمة : إذا كان الصدق ملهم الفلسفة الحققة فهو كذلك ملهم الفن العظيم .

وأول ما يلفت نظرك في مؤلفات هذا الفيلسوف الشاب الصدق المطلق . فهو يواجه المسائل في جرأة عظيمة ، لاهم له إلا أن يقف في حضرة الحقيقة كما يقف المؤمن في حضرة الله :

• الحقيقة ، أعلم أنها تؤلم
• النظر ، أعلم أنه قد يميئ
لاضير . . أنظري يا عيني

وقد اجتمع إلى هذا الصدق قوة في الفكر ، ورقة في القلب . فإذا قرأت جويو شعرت شعورين قويين : فأنت أولاً بازاء رشاقة طبيعة تشف ، كالبلّور ، عن نفس جميلة تبدو لك على حقيقتها سافرة عارية . . وأنت ثانياً ، إذا اتسع الأفق بعلو المسائل ، أمام فكر يسمو ويسمو حتى يقف وجهاً لوجه أمام السر اللانهائي . إنه يفكر بعقله وقلبه . وهذا هو السر في ذلك السحر الخاص الذي يفتن به قلوب من يقرءونه ، ولا سيما الشباب . وقد لا يكون بين الفلاسفة من جعل الفلسفة مستساغة عذبة بدون أن تفقد شيئاً من عمقها ، مثل جويو . إنه يفكر ويكتب على طريقة ابن أثينا الذي ليست الحقيقة في نظره إلا الانسجام والجمال . غير أنه أثني يعرف كونه ويعرف دارون وسبنسر ، ويشغف أشد الشغف بمسائل الحياة والمجتمع . وإنه لشغف معد ، يصرى إلى نفس كل من يقرؤه . إن أفكار جويو وبراهينه أقرب إلى التجوى الصداقية منها إلى الأفكار والبراهين . وكأنك حين تقرؤه تراه يحيا أمامك بكل ما في عينيه من حماسة وأسى معاً . وتحس أنه بحبك ، فما يسعك إلا أن تحبه ، ولا يسعك إلا أن تردد مع الشاعر العظيم : مجنون من يعتقد أنني لست أنت . هذا هو جويو الفيلسوف الشاعر الذي يمهل الموت حتى يتم الثالثة والثلاثين من عمره ، واخترمه وهو لما يزل في ريعان شبابه . ولقد كان كل شيء السنوات الأخيرة من حياته يبسم له : الحب المتبادل ، فقد أحب وأُحِب . . والرفاه المادى ، فقد توفر له الكثير من أسباب الرخاء . . والشهرة الآخذة بالتزايد ، فقد أعجب به كل من قرأه ، وصفق له كبار المفكرين في عصره ، حتى من يخالفهم في الرأي . إلا أن النقطة السوداء في حياته كانت تلك الصحة المتأرجحة المتذبذبة التي أصبحت مهددة من زمان بعيد .

وقد عانى في الأشهر الأخيرة هزالا مريعا، فكان يرى قواه تنسل منه يوما بعد يوم، ويرى الموت مقبلا إليه حيث الخطى . وما كان يخشى الموت ، بل كان ينتظره «واقفا» على حد تعبيره . وكان كل همه ، على ما يحدثنا زوج أمه ، الفيلسوف الكبير ألفرد فوييه الذي صحبه في أسفاره ، وسهر على صحته سهر الأب الرحيم ، أن ينجي آلامه عن ذويه حتى لا يسبب لهم ألما .

وكان جويو ، بعد أن نشر ديوانه «أشعار فليسوف» ، قد هجر لغة الشعر . إلا أنهم وجدوا بين أوراقه قصيدة بعنوان «موت الصرصور» ، لم تفسح له المنية مجال صبا في الصيغة الأخيرة . إنها وداع للشعر تحس في ثناياه وداعا للحياة .

عند الفجر . . . كان لا يزال يغنى

وريح الشمال . . . تهب نسيمات باردة

فيحسبها المسكين . . . عودة الربيع

وشاعرتنا الحشرة . . . لا ترى الربيع مرتين

فما هي إلا لحظات . . . حتى مات صوتها . . . في السهل الأصم

وكبا البريق . . . من الجناح الأشقر .

وما أتى المساء . . حتى انطفأت عيناها

وسقطت على الأرض . . . عارية

ها هي ذى في طريقى . . ميتة

تلك التي غنت . . الصيف كله

وهذا هو الربيع . . يذرى قلبها . . هشيما

أيتها المغنية . . التي أماتها يوم من برد

ما أشبهك بشبابي . . الذي كان يغنى

والذي يوشك أن يموت . .

وفي الواحد والثلاثين من مايو ١٨٨٨ انطوت آخر صفحة من هذه الحياة

الشابة الحسنة .

المترجم

القاهرة في ٥ يوليو سنة ١٩٤٦

مقدمة المؤلف

قال أحد المفكرين : غاية التربية هي أن تلقى في روع الإنسان فكرة الخير في صورة حكم سابق ، . وتبين لنا هذه العبارة الأساس الذي تقوم عليه الأخلاق العادية . أما بالنسبة إلى الفيلسوف ، فما يجب أن يكون في السلوك عنصر واحد لا يحاول الفكر أن يفسره ، وما ينبغي أن يكون ثمة واجب لا يبين عن الله ومبرراته .

ونريد في هذا الكتاب أن نبين ما هي ، وإلى أي حد يمكن أن تمضي ، الأخلاق التي لا يكون فيها للحكم السابق أي نصيب ، بل يكون كل شيء فيها معقولا ، مقدراً قدره الحقيقي ، إن يبين قاطع أو برأى أو فرض محتملين . ولئن لم ينجح معظم الفلاسفة (حتى فلاسفة المذهب النفعي والمذهب التطوري والمذهب الوضعي) في مهمتهم تمام النجاح ، فلأنهم أرادوا أن يقدموا أخلاقهم على أنها مطابقة تقريباً للأخلاق العادية ، وأن لها نفس الاتساع ، ، وأنها في قواعدها أمرية مثلها تقريباً . وهذا مستحيل . فإن العلم ، حين هدم عقائد الأديان المختلفة ، لم يطمع في أن يحل محلها جميعاً ، ولا أن يقدم مباشرة للحاجة الدينية موضوعاً محدداً وغذاء معيناً . وموقفه بإزاء الأخلاق كموقفه بإزاء الدين . فلا شيء يدل على أن من الواجب على أخلاق عليية محضة ، أي على أخلاق قائمة على أساس ما نعلم لحسب ، أن تنطبق على الأخلاق العادية المؤلفة في جزء كبير منها من أشياء نحسها أو نعرفها في صورة حكم سابق . وقد اضطر بنثام وأتباعه من بعده ، حتى يطابقوا بين الأخلاق الأولى والأخلاق الثانية ، إلى قسر الوقائع . وأخطأوا . فضلاً عن أن الممكن أن تتصور أن لا يكون نطاق البرهان العقلي مساوياً في اتساعه لنطاق العمل الأخلاقي ، وأن يكون هنالك حالات قد نعجز فيها عن إيجاد قاعدة عقلية يقينية . وقد كانت التقاليد والفريرة والعاطفة حتى الآن هي التي تقود الإنسان في سلوكه الأخلاقي . ومن الممكن أن تتبعها كذلك في المستقبل ، شريطة أن نعرف ما نعمل حق المعرفة ، وأن نعتقد حين

تبعها أننا لا نخضع لإلزام غيبي، بل لاندفاعات كريمة في طبيعة الإنسان، وضرورات عادلة في الحياة الاجتماعية .

وليس يضير علماً من العلوم ، كالأخلاق مثلاً ، أن نبين أن موضوعه (كعلم) محدود . بل إن الأمر على نقيض ذلك . فنحن حين نضيق علماً من العلوم ، إنما نكسبه في معظم الأحيان قدراً أكبر من صفه اليقين . فالكيمياء إلا علم الصنعة بعد أن ضاق حتى صار لا يشمل إلا الوقائع التي يمكن ملاحظتها . وفي اعتقادنا كذلك أن الأخلاق العلمية المحضنة ما ينبغي لها أن تطمح في أن تشمل كل شيء ، بل يجب ، على العكس ، أن تحاول تحديد ميدانها لا أن تبالغ في توسيعه . يجب أن ترضى بأن تقول بصراحة: إنني في هذه الحالة لا أستطيع أن آمركم بشيء قطعي باسم الواجب . فلا إلزام ها هنا ولا جزاء ؛ فارجعوا إلى العميق من غرائزكم : ارجعوا إلى ميلكم الطبيعي ، ونفوركم الطبيعي الإنساني ، وتصوروا بعد ذلك فروضاً ميتافيزيائية بصدد حقيقة الأشياء ومصير الكائنات ومصيركم الخاص ، وكونوا حكام أنفسكم بأنفسكم — فتلكم هي الحرية في الأخلاق ، حرية ليس قوامها فقدان كل قانون، بل توقف القانون حيث يعجز عن التبرير تبريراً كاملاً بالإحكام. وعندئذ يبدأ في الأخلاق نصيب النظر الميتافيزيائي الذي لا يستطيع العلم الوضعي أن يزيه ولا أن ينوب عنه تماماً. فحين يقطع المرء جبلاً من الجبال يتفق له في لحظة من اللحظات أن تلفعه السحب التي تغشى القمة ، فيغيب في الظلمات . فكذلك الأمر في الندرى العاليات من الفكر . إن قسماً من الأخلاق يختلط بالميتافيزياء ، وقد يظل إلى الأبد محتفياً بين السحب . إلا أنه لا بد أن يكون له كذلك أساس وطيء ، وأن نعلم ، على وجه الدقة ، النقطة التي ينبغي للمرء فيها أن يمتنع عن الدخول في السحاب .

ثلاثة كتب هي في رأينا أهم ما ظهر أخيراً في الأخلاق : (The data of ethics) لسينسر في إنجلترا ، و (La phénoménologie de la conscience morale) هارتمان في ألمانيا ، و (La critique des systèmes de morale comemporaine)

لقويته في فرنسا . وقد خرجنا من هذه المؤلفات الثلاثة المختلفة النزعة برأيين أولهما أن الأخلاق الطبيعية والوضعية لا تقدم لنا مبادئ ثابتة لا بصدد الإلزام ولا بصدد الجزاء ، وثانيهما أنه إن استطاعت الأخلاق المثالية أن تقدم لنا شيئا من هذا ، فذلك على سبيل الفرض لا القطع . أى بتعبير آخر إن ما هو من مرتبة الوقائع ليس عاما ، وما هو عام إنما هو فرض نظري . وينتج عن ذلك أن الأمر من حيث هو مطلق قطعي ، يزول من الناحيتين . ونحن ، من جهتنا ، نقبل هذا ، ولا نأسف للتنوع الأخلاقي الذي ينتج عنه في بعض الحدود ، بل نرى ، على العكس أنه أخص خصائص الأخلاق في المستقبل . ونحن نخالف آراء دي هارتمان المتعالية في قوله بحنون إرادة الحياة ، وبالترفانا المفروضة على العقل كواجب منطقي ، ونرى أن الباعث على السلوك الأخلاقي إنما هو الحياة الشديدة ، العنيفة ، الواسعة ، المتنوعة ... وإن كنا نتصور التوفيق بين الحياة الفردية والحياة الاجتماعية على نحو آخر . ونحن نوافق مؤلف « نقد المذاهب الأخلاقية المعاصرة » على قوله بأن المدرسة الانجليزية والمدرسة الوضعية اللتين تسلمان بوجود « ما لا يمكن معرفته » قد أخطأتا في تحريم كل فرض فردي بصده . غير أننا لا نعتقد معه أن « ما لا يمكن معرفته » يمكن أن يقدم لنا مبدأ « محددا للسلوك من الناحية العلمية » مبدأ عدالة صرفة هو وسط بين الأمر القطعي الذي قال به كنت وبين الفرض الميتافيزيائي الحر . وفي رأينا أن « المعادلات » ، « أو المعوضات » الوحيدة المقبولة للواجب ، على حد تعبير مؤلف « الحرية والجبر » هي ما يأتي :

١ — الشعور بقدرتنا الداخلية العليا ، التي سنرى أن الواجب يرتد إليها عمليا .

٢ — تأثير الأفكار في الأفعال .

٣ — امتزاج العواطف امتزاجا آخذا بالتزايد ، وكون لذاتنا وآلامنا ما تنفك تغدو أكثر اجتماعية .

٤ — حب المخاطرة في العمل ، بما سنبين خطره الذي ما يزال إلى الآن مجهولا .

٥ — حب الفرض الميتافيزيائي ، الذي هو نوع من المخاطرة في التفكير .

ففي رأينا أن هذه البواعث المختلفة، مجتمعة ، هي كل استطيع الأخلاق المعتمدة على الوقائع ، وعلى الفروض التي تكمل هذه الوقائع ، أن تحله محل الإلزام القطعي القديم . أما الجزاء الأخلاقي ، بالمعنى الأصلي للكلمة ، المستقل عن الجزاء الاجتماعي ، فسوف ترون أننا سنحذفه أصلا ، لأنه في حقيقته غير أخلاقي من حيث هو د تكفير . . فيمكن أن يعد كتابنا إذن محاولة في تحديد مجال الأخلاق العلمية المحضة ، وفي تعيين مداها وحدودها أيضا ؛ وبالتالي فإن قيمته تظل باقية مهما تكن الآراء التي نكونها عن الحقيقة المطلقة الميتافيزائية للخلق .

مانتون ؛ سبتمبر ١٨٨٤